الى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

المشـــكلة

للأديب أحمد الطاهر

لا فضل لى فيما أعرض من رأى فى هذه المشكلة التى عرضت فى « الرسالة » يوم الاثنين ليلة النصف من شعبان ، بل الفضل لصاحبة « الجمال البائس » فيما أوحت به اليك من رأى فى رجولة الرجل

* * *

فاذا استوت للرجل رجولته فسبيل الحياة له يكون كما أراده الله أن يكون : خيراً ، ويسراً . أما ما يلقى الرجال فيه مما يسمونه بأسماء تضاد الخير واليسر فمرجعه فى أكثر الأحوال إلى أن الرجل لم تستو رجولته ولم تكمل . والنقص فى الرجولة زيادة فى الشقاء ، وإذا لقى الرجل فى سبيل الحياة نتوءاً يتعثر فيه فقى رجولته ثغرة قد قدت على قدر هذا النتوء

ونعود إلى صاحب المشكلة — وفقه الله — فنمتحن رجولته فنجدها ناقصة من بعض نواحيها ، سقيمة فى بعضها الآخر ؛ ولكن نقصها ليس مما يستعصى على الكمال ، وسقمها ليس مما يحمل على اليأس فى أى حال ، فمشكلته ليست عسيرة والحمد لله

شهد الفتى على نفسه فقال : « إن الرجل الجاثم فى عقله هو غروره — يومئذ — وكبرياؤه يقع فى الخطأ بعد الخطأ ، ويأتى الحماقة بعد الحماقة ؛ ونشأ صلب الرأى ، معتداً بنفسه ، إذا هم مضى ، وإذا مضى لا يلوى ، وما هو إلا أن يخطر له الخاطر فيركب رأسه . . . . »

اللهم غفراً ورحمة لهذا الفتى ! !

إنه قد عرف عيب نفسه ، ومن عرف عيبها وأسحر به فقد نهج السبيل إلى علاجها ، وإنه لواصل إلى غايته عاجلا أو آجلا ، لا ينقصه إلا أن يذيقها مرارة الحق لتشفى بعد أن استساغت حلاوة الباطل فسقمت

البلاء الذى لا يشبهه بلاء ، والسقم الذى لا يرجى منه شفاء ، هو أن يجهل الرجل عيب نفسه ، أو يعلمه علماً ناقصاً يلتمس فيه الأسباب والعلل المبررة

أما صاحبنا فكما نعلم من القصة : رجل فاضل مهذب ذو ميسرة ، وبيته بيت فيه الدين والخلق والشهامة والنجدة ؛ وبعض هذا فيما أرى كفيل بتيسير العلاج له برعاية الله التى لا تتخلى عن بيت فيه الدين . فان ضل واحد من أفراد هذا البيت ، فى قلبه من أثر الدين الذى بسط سلطانه على البيت منذ نشأته بقية صالحة يكشف عنها غطاؤها فتقود هذا القلب إلى الخير فى عجلة أو وناء . فلندع رجل المشكلة الآن ولننظر إلى فتاتها

هذه الفتاة التى سميت للفتى — سامحها الله — لِمَ أغلقت الباب فى وجهه ؟ لم يذكر لنا عارض المشكلة سبباً صريحاً لهذه الفعلة ، على أن إدراك السبب ليس بعسير ، فلقد نستطيع أن ندركه «بالاستنتاج والمقارنة» ؛ فالفتاة الثانية التى عرفها صاحب المشكلة فأحبها لم تغلق فى وجهه الباب لأنها كانت فتاة جذابة « أمسكت بأحدى يديها عنانه » فمضى قدما ، فاذا التفت إلى الوراء قرأ فى عينيها كلمات : « أتستطيع فراراً منى ؟ » فيقول : « لا » ويمضى . . . « ثم يلتصق بجسمها » فتسرى منها إلى قلبه رسالة يقرؤها بقلبه المريض ، فاذا هى : « الدنيا كلها هنا » . . . . . .

هذا شأنها ، وما أحسب أن من ظالم الأحكام أن نصف الفتاة بأن فى حياتها لينا ورخاوة ، ولذا لم تغلق فى وجهه الباب وهى لم تصبح زوجا له بعد . ولا أحسب أن الفتاة الأولى قد

فى الأخبار ، وإمتاعاً للأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف ، وكلامه أكثر تدفقاً وتعشقاً بالأنفس ، ولولا ما اتسم به مما عرف من أجله بابن خاقان لكان أحد كتاب الحضرة المرابطية بل مجليها المتولى على الرهان ، وإنما أخل به ما ذكرناه مع كونه اشتهر بذم أولى الأحساب ، والتمرين بالطعن على الأدباء والكتاب ، وقد رماه الله بما رمى به إمام علماء الأندلس أبا بكر بن ماجه فوجد فى فندق بحضرة مراكش قد ذبحه عبد أسود خلا معه بما اشتهر عنه وتركه مقتولاً . .

نرجىء القول على قتله ولماذا قتل ونمضى الكلام على منزلته الأدبية والمفاضلة بينه وبين معاصره وتوأمه أبى الحسن على بن بسام صاحب الذخيرة

(يتبع) عبد الرحمن البرقوقى

أغلقت الباب إلا لأن فى حيائها شدة واستمساكا

* * *

ألا فاعلم ياصاحب المشكلة ، أن حياء المرأة إذا أصيب بالمين والرخاوة نفر فيه الشيطان ثغرة يجلس على بابها ويصيح : « هلموا أيها الفتيان ! » وسرعان ما يستجيب الفتيان لصيحة الشيطان .

واعلم وقاك الله أن هذه الفتاة التى فتحت لك الباب إن تزوجتها فستتزوج معها الشيطان الجاثم على ثغرة حيائها وسينضم الى شيطانك فتصبح بين ثلاثة : امرأة وشيطانين ! وأنت واحد ! وستكون بين أمرين احلاهما مر : إما أن يأتمر بك الشيطانان فيوسعا فى ثغرة حيائها حتى يدخل فيها غيرك من الفتيان .

وإما أن تضيق أنت بما وسع الشيطانين أن يفعلا فتلجأ الى أبغض الحلال الى الله — الطلاق ! وأدعو لك مرة أخرى : وقاك الله .

على أن الشيطانين إن أعياهما صبرك أو سعة فى حلمك دارا بوجهيهما الى المرأة فصوراك لها بصورة بشعة قبيحة ، وبذرا فى قلبها حبا مراً أسود ينبت فى القلوب المريضة فيثمر ثمراً مراً أسود يسمى البغضاء ويسمى الكراهية ويسمى المقت : ولا يزال هذا الثمر ينمو ويربو حتى ينضج ويستوى فلا يتسع له قلب المرأة فتحاول أن تجتثه من أصله فلا تستطيع ، فتعمد الى الزوج تحاول أن تجتثه ، فان أفلحت فذلك ما أرادت وتستريح ويشقى الرجل شقاء المحروم من أهله ، وإن لم تصبه أصابت شرفه ويشقى الرجل شقاء المثلوم فى عرضه ؛ أقبل أيها الرجل على تلك التى أغلقت الباب فى وجهك :—

أتدرى لم أغلقته ؟

لأنك لم تكن وحدك حين طرقت بابها ! لقد رأت معك شيطانك وما يتسع بابها لدخول إنسان وشيطان . لقد رأت معك الشيطان متمثلا فى « غرورك وشبابك وكبريائك وعنادك » فأشفقت عليك وعلى نفسها من ثالث يدخل بينكما . ولو أفسد الشيطان وأنتما لم تصبحا زوجين بعد فيا للشقاء ويا للعار !

إنها أغلقت الباب فى وجهك وأنت خطيبها المسمى لها وأحكمت إغلاقه من الداخل حتى لا تستطيع أنت أن تدخل عليها ، فكان الأجدر برجولتك أن تحكم إغلاقه من الخارج حتى لا يستطيع غيرك أن يدخل اليها

حتى إذا حان موعد الزواج فضضتما الاغلاق فى وقت واحد وفى حضرة نفر من الأهل وذوى القربى ، وعسير على الشيطان يومئذ أن يندس بينكما

* * *

ما عليك أيها الرجل إلا أن تفتح قلبك لهذه المرأة الحيية الخفرة فتصل ما بينها وبينك ، وتغمض عينيك عن كل مايصوره لك غرورك ونزقك وكبرياؤك وصلفك ، ولن تلبث طويلا حتى ترى هذه الفتاة جندا من جنودك يحارب معك أعداء نفسك ويعالج معك أدواءها ، وستصلان الى الحب الزوجى النقى وفيه منك العطف والحنان ، وفيه منها الوفاء والاخلاص

ستجد فى هذا عناء ونصبا ، وسوف تتمثل لك الفتاة التى أحببت بين حين وآخر وأنا أدلك على ما يجب أن تعمل :

أنظر بعقلك الذى تبرأ منك حين صدت عنك الفتاة :

تلك الفتاة التى قد أحببت وضَمَّت جمالها ورقتها وفتنتها وذكاءها فى إناء ولم تحبسه عن الناس ولم تتخذ لصيانته سببا من الأسباب . وهذه الفتاة التى كرهت لقد وضعت عفتها ووفاءها وشرفها وحياءها فى إناء وأغلقت دونه الأبواب . فأيهما أبقى على الزمن ؟ وأيهما أخلص لك ؟ وأيهما لايعبث به نزق الفتيان ؟

وإن كان فى صدرك حرج مما لا تجد فى زوجتك الخفرة من جمال ورقة وفتنة وذكاء وما يتراءى لك فى الفتاة الجذابة فخذ واحدة مما زُيِّنَ لك من صفاتها وضمها الى جوار واحدة مما ترى من صفات زوجتك : خذ الجمال من تلك وضعه الى جوار الشرف من هذه : وانظر فى نصيبك من الاثنين :

ألست ترى جمال الجميلة ملكا لها تجود منه بما تشاء ومتى تشاء ولمن تشاء ؟ وشرف الشريفة لك ولزوجتك تنعمان بفضله مابقى ، وتستظلان بفيئه ما كان ؛ لايستأثر به واحد منكما وحده ، ولا يبخل بخيره أحدكما على الآخر ؟ ألا تجد الجمال متاعا تستهلكه أنوثة المرأة ، والشرف متاعا تستبقيه رجولة الرجل ؟

ثم خذ الذكاء من الحبيبة اليك وضعه الى جوار الحياء من البغيضة اليك وانظر الى حظك من الاثنين :

ألا تجد الذكاء سلاحا فى يد الأولى تحارب به كل الناس وزوجها : والحياء سلاحا فى يد الثانية تحارب به كل الناس إلا زوجها ؟

خذ الفتنة من تلك والوفاء من هذه

ألا ترى الفتاة تنادى بفتاها : هلموا الى أيها الناس ، وترى الوفية تنادى بوفائها : هلم الىّ أيها الزوج ؟

* * *

وبعد ، فهاتان اثنتان احداهما وقفت بالباب ، والأخرى أغلقت الباب

أما التى وقفت بالباب فانها تستقبل الدنيا وتستدبر الدار ، وأما التى أغلقت على نفسها الباب فانها تستقبل الدار وتستدبر الدنيا . والدنيا للناس جميعاً ، والدار لك وحدك

فانظر أيتهما الصالحة لك ، الجديرة بحبك ، الأمينة على بيتك ، الحفيظة على شرفك

سترى فى زوجتك عيوباً ونقصاً ، وستتجسم هذه العيوب ، لأنك تنظر اليها بغير عين الرضا ؛ وخير لك ألا تفكر فى هذه العيوب حين تبدو لك إلا بمقدار ما تحاول اصلاحها ، وأن تروض نفسك على اليقين بأن المرأة الكاملة لم تخلق بعد ، ولن تخلق بعد ، فلو خلقت الزوجة الكاملة خلقاً وخلقاً لتعطل فى الرجل كثير من صفات الرجولة ، ولما شعر الرجل بما مازه الله به على المرأة ، ولخرجت المرأة من انوثتها ، ولتزحزح الرجل عن رجولته ؛ ولما كان الرجال قوامين على النساء

* * *

ولا أجد فى الرد على ما تدعيه لنفسك من الحرية أبلغ مما أجابك به عمك حين قال : «إن كنت حرا كما تزعم فهل تستطيع أن تختار غير التى أحبيتها» ، وحين يسائلك : «ألا تكون حرا إلا فينا نحن وفى هدم أسرتنا ؟»

وإن كنت تبيح لنفسك تحت ظل هذه الحرية أن تحب غير امرأتك لا لسبب إلا لأنك رأيت فتاة غيرها تفوق زوجتك جمالاً ورقة وعذوبة منطق ، فبم ستنتهى بك هذا ؟

ألا تدرى أنك إن وثبت إلى الفتاة تراها فتعجبك فتتخذها زوجة دون زوجتك أو تضمها إليها فما زلت فى الدنيا وما زال فيها من هى أجمل وأذكى وأدهى للفتنة من تلك التى أعجبتك : أتثب إليها أيضاً وتتخذها زوجة ثالثة ، أم تطلق الاثنتين وتتزوج الثالثة ؟ ألا تعلم أن هذا لا ينتهى بك إلى نهاية ، ولا يقف بك عند غاية ، ولو أباح الناس جميعاً لأنفسهم هذه الفعلة لما قامت زوجية صالحة ، ولا نعم الأولاد بالحنان الممتزج من الأبوة والأمومة ، ولأفضى الحال بالناس إلى أن يتواثب الرجال والنساء بعضهم إلى بعض ، ولفسدت بذلك الأرض ؟

يا أخى : إن المتزوج الذى يشتهى جمالاً أكمل من جمال زوجته أو فضلاً لم يجده فى زوجته فيثب إليه إنما هو رجل قد أسقط مروءته وأهدر رجولته وظلم زوجته أشد الظلم ، وكفر بأنعم الله أشد الكفران ، وديث شرفه بالصفاو . وحسبك لتقدر هذا أن تزن الفعلة وزنها لو انعكس الوضع فأباحت الزوجة لنفسها ما يبيح الرجل لنفسه ؛ لا تقل إن الله أباح للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع دون المرأة ، فلذلك حكمة وقيود لا يسقط بها حق المرأة على الرجل وواجب الرجل قبل المرأة

ما أحسبك إلا فهمت هذا وأحسنت تقديره ، وأنت القائل لعمك إنك تقدر الرجولة والثواب والمروءة

* * *

اتق الله فى الزوجة ، وأشعر نفسك قوة الرجولة ، وانظر إلى ضعف الأنوثة ؛ وليكن لك على قلبك السلطان القوى ، وهى بالعطف والحنان مهادا للحب الزوجى تجد أن زوجتك أحب الناس اليك ، وأقدرهم على اسعادك .

اليوزباشى

أحمد الطاهر